

الفصل السابع

العناصر المعمارية وخصائصها

- ١- استعمال الحجارة واستخدام الروافع.
- ٢- العقود.
- ٣- المحاريب.
- ٤- القبوات والقباب والمقرنصات.
- ٥- المآذن والمعاطف.

الفصل السابع

العناصر المعمارية وخصائصها

١

استعمال الحجارة - استخدام الروافع

تطورت عمارة المساجد في العصر الفاطمي تطوراً كبيراً متنوعاً. وامتاز البناء فيها فيما امتاز به باستخدام الحجارة. وقد أخذ استخدام الآجر يقل تدريجياً، ثم كاد يتلاشى في نهاية ذلك العصر، ويعم استخدام الحجارة.

بدأ العصر باستخدام الآجر في البناء كما رأينا في الأسوار التي أقامها جوهر الصقلي، وفي بنائه للمسجد الجامع الأزهر. ثم اقتصر استخدام الآجر على بناء العقود والسقف والجوانب الداخلية للجدران والأجزاء العليا من المآذن. وقد رأينا أن خليطاً من الآجر والحجارة استخدم في بناء أجزاء من مسجد الحاكم، هي جدرانه، ولكن مؤذنتيه وبواباته بنيت من الحجارة. واستخدمت الحجارة بصورة ملحوظة في المساجد الفاطمية الأخرى.

استخدمت الحجارة أول الأمر في العصر الفاطمي بالخلط مع الآجر في جدران مسجد الحاكم، ثم استخدمت في معطف مؤذنتي هذا المسجد وفي مسجد الجيوشي من قطع غير منتظمة، كسيت بطلاء من الجص. واستخدمت في مؤذنة هذا المسجد الأخير عوارض خشبية، دفنت في البناء بين صفوف الحجارة. تدعيماً لها. واستمرت هذه الطريقة متبعة في القاهرة أجيالاً طويلة.

وكانت الحجارة مستخدمة في البناء من قبل في مصر وفي بلاد المغرب. قبل الفتح الإسلامي، واستمر استخدامها في بلاد المغرب بعد الفتح. ولهذا فإنه ليس غريباً أن تتخذ الحجارة وسيلة للبناء في عهد الحاكم، بجوار استخدام الآجر. ولاشك في أنه كانت لأعمال بدر الجمالي في القاهرة، وبناء أسوارها الجديدة جميعاً من الحجارة، أثر كبير في شيوع استخدام الحجارة بعد ذلك في بناء المساجد. وترى في جدران مسجد الصالح طلائع بدونات أعمدة مغمورة في البناء الحجري، على مثال ما اتبع في بناء أسوار بدر الجمالي.

ولم يقتصر الأمر على شيوع استخدام الحجارة، بل إنه عنى بقطعها وصلها وتنسيقها في البناء كما يشاهد مثلاً في مؤذنتي الحاكم. ولم يعد يستعان بالطلاء الجصي في غطاء المسطحات الجدارية وتسويتها. ولهذا اتخذت الواجهات طابعاً جديداً واتخذت البوابات مظهراً مستقلاً. وأضافت الزخرفة المنحوتة على الحجارة أهمية إلى واجهات المساجد الفاطمية. في مسجدى الأقمر والصالح طلائع، فأصبحت الواجهة نفسها عنواناً آخر للوظيفة الدينية التي يؤديها البناء، فإذا تصورنا هذين المسجدين خاليين من مؤذنتيهما، فإن واجهته كل منهما تكفى دليلاً على كيانهما.

وهكذا أصبحت مادة البناء، وهي الحجارة، عنصراً قائماً بذاته، عنصراً متكاملًا، بعد أن كان الآجر عنصراً غير متكامل. يفتقر إلى الطلاء والجص لسد النقص في مظهره.

هذه ناحية هامة ترتبت عن استخدام الحجارة. وثمة ناحية أخرى: ليست أقل أهمية منها، ترتبت عن العناية بصقل الحجارة وتنسيقها، واستغلالها في الزخرفة، وتلك هي ابتكار الصنج المعشقة، التي تمكن البناء بفضلها من استخدامها في العقود المنبسطة وفي العتبات الأفقية في النوافذ والأبواب، عوضاً عن العقود المقوسة والمديبية.

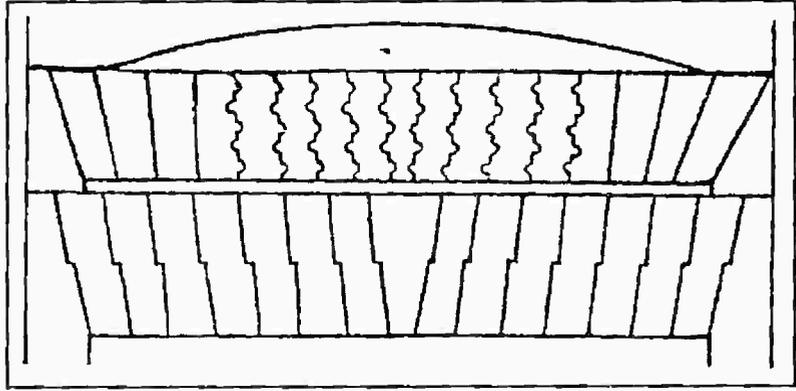
والأصل في هذا الابتكار المعمارى ضرورة بنائية. إذ إن تعشيق الحجارة يربطها ربطاً قوياً، ويزيد من تماسكها، فيغنى عن العقود المقوسة أو المديبية. وكانت الصنج المعشقة معروفة قبل الإسلام في بلاد عديدة، «من إسبانيا إلى القرات»^(١). ولكن الأمثلة المتخلفة من هذه المناطق الشاسعة قليلة^(٢)، بل كان استعمالها حينذاك نادراً^(٣). والمعروف عن هذه الصنج السابقة للعصر الإسلامى أنها كانت تتخذ شكلاً مبسطاً، كما يتضح من عتبة باب فى المسرح الرومانى بمدينة (أورانج) فى فرنسا وهو من القرن الثانى قبل الميلاد. وكذلك الحال فى عقود من مقبرة (تيودوريك) فى (رافنا) بإيطاليا، وهى التى بنيت فى سنة ٥١٩ ميلادية^(٤). وكانت هذه الصنج وتلك مبسطة الشكل والتعشيق، وكذلك كانت الصنج المكتشفة فى قصر الحيرة الشرقى الذى أقامه هشام بن عبد الملك فى سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م.

(١) انظر صفحة ٢٤٣ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية الأولى»، صفحة ١٢١ من كتابه، «مختصر العمارة الإسلامية الأولى».

(٢) انظر صفحة ٢٤٢ إلى ٢٤٥ من الكتاب الأول المشار إليه فى الحاشية السابقة.

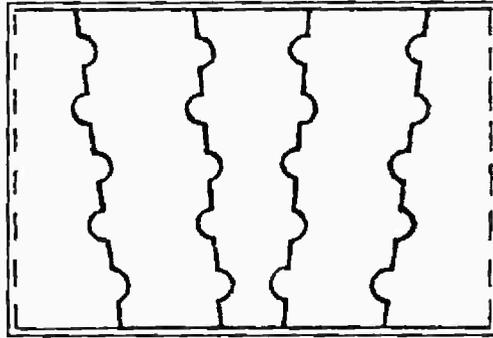
(٣) انظر المرجع السابق، صفحة ٢١١.

(٤) انظر شكل (٦) عن «المدخل».



شكل (٢٥) - رسم للصنح المشقة في عتبة بوابة النصر بالقاهرة من عصر بدر الجفالي

وعلى هذا النحو المبسط ظهرت الصنح المشقة في العمارة الإسلامية بمصر أول ما ظهرت في بوابات النصر والفتوح وزويلة^(١)، شكل (٢٥). غير أن هذه الأشكال تطورت في بوابة النصر نفسها، في العتبة الثانية التي تعلو عتبته الأولى. شكل (٢٥) ثم تطورت تطوراً أكبر في مسجدى الأقرم والصالح طلائع، اللوحات أرقام (٤٣ و ٥٣). واتخذت الصنح في العتبات الأفقية والمقوسة مظهراً زخرفياً، مع احتفاظها بوظيفتها الإنعماوية، وأصبحت تتكون من شكل أنصاف دوائر متقابلة مرتبطة بخطوط مستقيمة مصغرة، شكل (٢٦).



شكل (٢٦) - رسم للصنح المشقة في عتبة مسجدى الأقرم والصالح طلائع

(١) انظر المرجع السابق

وتمتاز مساجد القاهرة الفاطمية بالتطور الذى أدخل على طريقة استخدام الروافع، وهى الأعمدة والدعامات. وقد استخدمت الأعمدة القديمة فى بعض المساجد، كالأزهر والأقمر والصالح پلائع، كما كانت تستخدم فيما قبل، ولكنه أضيفت فوق تيجانها القديمة حدارات. وقد أشرت إلى هذه الحدارات فيما سبق، وأوضحت أنه يعلوها طنفة وتدونها قرمة. وهذه المجموعة المكونة من ثلاثة عناصر تعتبر ابتكاراً فى العمارة الإسلامية ببلاد المغرب، وتشاهد فى مسجدى القيروان والزيتونة وفى غيرها من المساجد^(١)، ولم تستخدم فى العمارة الإسلامية بمصر قبل ذلك^(٢)، ولا شك فى أن استخدامها بالقاهرة، وخاصة فى المسجد الأزهر كان اشتقاقاً من العمارة العربية المغربية. وقد قصد بهذا الابتكار معالجة قصر طول الأعمدة واختلاف ارتفاعاتها، وإيجاد قواعد ثابتة على مستوى واحد لأطراف العقود. وقد صنعت الحدارات فى الأزهر من الحجارة، وفى الأقمر، من ألواح خشبية. واقتصر فى مسجد الصالح پلائع على الطنف الخشبية، أو الوسائد، التى نحتت عليها الزخارف، واستغنى عن الحدارات فى هذا المسجد لأن أعمدته كانت طويلة أصلاً، كما أنه وضعت لها قواعد من مكعبات حجرية مرتفعة. ولهذا لم تكن هنالك ضرورة معمارية لتزويد الأعمدة بحدارات، خاصة وأن عقود المسجد كانت مطولة الأطراف. ولكنه احتفظ بالطنف الخشبية فى هذا المسجد تذكيراً للتقاليد المعمارية العربية من جهة، ولإستخدامها فى الزخرفة من جهة أخرى. ولهذا فإن وظيفتها، كما كان الحال فى مسجد عمرو، زخرفية أكثر منها معمارية، لوحة رقم (٦٩).

وبدأت الأعمدة تصنع خصيصاً للمساجد التى تقتصر حاجتها منها إلى عدد ضئيل، مثل مسجد السيدة رقية. وكذلك صنعت تيجان هذه الأعمدة وقواعدها بالقاهرة، وهى على هيئة الناقوس أو الزهرية، لوحة رقم (٤٧ و ٥٠ أ). وفى قبة مسجد الحاكم تيجان ناقوسية صنعت كذلك محلياً.

واستخدمت الدعامات فى مسجد الحاكم عوضاً عن الأعمدة، مثل ما اتبع من قبل فى مسجد ابن طولون. ودعامات «الحاكم» تطور منطقى لهذه الدعامات الطولونية. وهى تمتاز ببروز ضئيل فى كل من واجهاتها الأربع، كان المقصود منه تمهيد قاعدة لكى تستند عليها الأوتار الخشبية التى تربط أطراف العقود. ثم إن الدعامات فى مسجد الحاكم تظهر كأنها مجموعة من أربع دعامات ملتصقة بالتعارض، وكأن كلا منها يحف به عمودان مندمجان فى ركنيهما. وهكذا تتميز دعامات المسجد الحاكم بأنها واضحة المعالم، مفصلة العناصر، بحيث

(١) انظر للمؤلف صفحتا ٦٨ و ٦٩ من «المسجد الجامع بالقيروان»، وصفحة ٨٢ من: «مسجد الزيتونة الجامع».

(٢) استخدمت فى مسجد عمرو وسائد خشبية فوق تيجان الأعمدة، ووظيفتها تسوية مسطحات التيجان تحت أطراف العقود، وهى وظيفة تختلف عن وظيفة الحدارات، انظر المدخل.

يؤدي كل عنصر منها وظيفة مستقلة. والواقع أن هذه التجزئة شكلية وظاهرية فحسب، لأن دعامة «الحاكم» مثل دعامة «ابن طولون» كتلة واحدة متماسكة. ومع ذلك فإن لهذه التجزئة الظاهرية أهمية، إذ إنها تعتبر خطوة من تطور أساليب العمارة الإسلامية، تطوراً أدى إلى تحديد عنصر قائم بذاته، مظهراً وتكويناً، لكل وظيفة معمارية^(١).

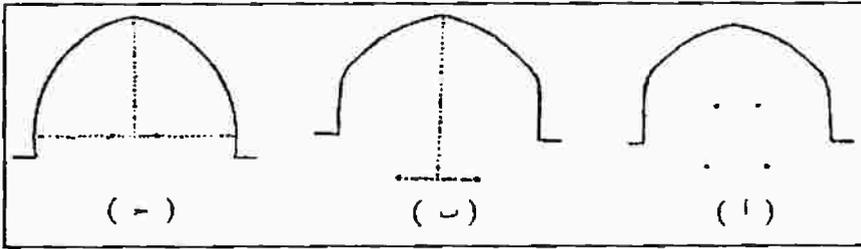


(١) أبدي الأستاذ (هوتكور) هذه الملاحظة عند شرحه لعناصر العمارة في مسجد الحاكم، وذلك في صفحة ٢٢٢ من الجزء الأول من كتاب «مساجد القاهرة» عن تأليفه بالاشتراك مع (فييت). ونص الفقرة المشار إليها هو:

"Les architectes musulmans.. éprouvèrent progressivement le besoin de distinguer dans un member portant les différentes fonctions de chaque élément".

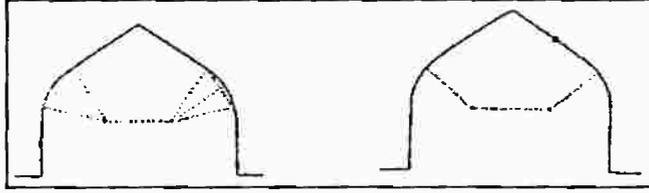
العقود

استخدمت في عمارة القاهرة في العصر الفاطمي أنواع عديدة من العقود، منها المقوس ومنها المدبب ومنها الطول ومنها المنفرج والمنفوخ والمنبطح والأحدب، وقد أشرت إلى مواضع استخدامها في الفصول السابقة، شكل (٢٧). وتوجت النوافذ في الأزهر والحاكم بعقود مقوسة، أى من أنصاف دوائر، واتخذت بعض النوافذ والطاقت في مساجد الحاكم والأقمر والجيوشى عقوداً مدببة. وفي نوافذ القبّة في السيدة رقية اتخذت العقود شكلاً يجمع بين العقد المنفوخ والعقد المنفرج. وهو عقد استخدام أول ما استخدم في الزخرفة كما سنرى فيما بعد. واستخدمت كذلك العقود المتتابة، أو المزدوجة، بصفة عامة في مسجد الأقمر، وكان استخدامها من قبل مقصوراً على المحاريب. ولعل أكثر العقود شهرة ومظهراً والتصاقاً بالعمارة الفاطمية هي العقود المنفرجة. وقد سميت هذه العقود أحياناً بالعقود الفارسية، وهى تسمية خاطئة كما سنرى.



شكل (٢٧) - رسوم إيضاحية لأمثلة من العقود المستخدمة في العمارة الفاطمية

ويتكون شكل العقد المنفرج هذا من كتفين مستقيمين يجتمعان عند رأسه في زاوية منفرجة، وله طرفان رأسيان مستقيمان كذلك، يربطهما بالكتفين انحناء مقوس من كل جانب، شكل (٢٨). وهذا هو الشكل الذى أطلقت عليه اصطلاح «العقد المنفرج»، بدلاً من «العقد الفارسى». والذى جعل العلماء يطلقون على هذا العقد اصطلاح «العقد الفارسى» هو ظنهم أنه كان معروفاً في العمارة الفارسية قبل استخدام العمارة الإسلامية له بالقاهرة، وأنه كانت تربط هذه العاصمة بالدولة الفارسية روابط قوية أثناء الحكم الفاطمي.



شكل (٢٨) - رسم إيضاحي لشكلين من أشكال العقود المنفرجة

فقد ذكر (فان برشم) أن العقود في جميع المساجد الفاطمية عقود «فارسية»، وهي عقود تتكون من انحناء ينتهي عند طرفيه بخط مستقيم، وأن هذا العقد لم يظهر في العمارة الإسلامية بمصر قبل العصر الفاطمي. ويفسر (فان برشم) هذه الظاهرة بانتشار التأثيرات الفارسية في وادي النيل أثناء حكم الدولة الفاطمية التي كانت العقائد الشيعية والإسماعيلية تربطها بالدولة الفارسية. وينتهي (فان برشم) إلى القول بأن العقود العتيقة في المسجد الأزهر تتخذ أشكال العقود الفارسية^(١).

وذكر (سلادان) رأياً مماثلاً فقال: «إن عقود مسجد الأزهر التي ترتكز على أعمدة تتخذ شكلاً حاداً خاصاً، وكذلك عقود الطاقات القائمة بينه. وهذا الشكل كان منتشرًا في بلاد الفرس»^(٢). وكذلك أكد (هوتكور) أن عقود الأزهر الفارسية ترجع إلى قوة الرابطة الدينية التي كانت تربط الفاطميين بالفرس، وأضاف إلى ذلك قوله إن هذه العقود الفارسية ترجع إلى أصل هندي^(٣). وأخيراً وافق (مارسيه) على هذا الرأي وأضاف إلى ذلك أن هذه العقود كانت مجهولة في مصر من قبل^(٤).

قامت هذه النظرية إذاً على الظن بأن العقد «المنفرج» كان واسع الانتشار في فارس قبل العصر الفاطمي. ولكن (كريسويل) أوضح أن أقدم الآثار المعروفة في بلاد الفرس (بل وفي

(١) انظر صفحتا ٤٢٨ و ٤٢٩ من مقال (فان برشم) عن مذكرات في الآثار العربية.

Van-Berchem, Max, *Notes d'Archéologie Arabe* Journal Asiatique. 8^e série, Tomes XVII, XIX, Paris, 1891.

(٢) صفحة ٩٥ من كتاب «فن الإسلام - العمارة»:

Saladin, Henri, *Manuel d'Art Musulman*, L'Architecture, Paris, 1907.

(٣) انظر صفحة ٢١٨ من الجزء الأول من كتابه «مساجد القاهرة».

(٤) انظر صفحة ٢٩ من المقال الذي نشره بعنوان «مساجد القاهرة».

Marçais, George, *Les Mosquées du Caire d'après un livre récent*, Revue Africaine, Tome LXXIV, 1933.

وانظر كذلك صفحة ٧٧ من كتابه «فن الإسلام»:

L'Art de l'Islam. Larousse. Paris. 1946

أواسط آسيا) والتي تحوى عقوداً «فارسية» هي أحدث عهداً من الأزهر، وأن الآثار المتخلفة فى تلك البلاد، والتي يرجع تاريخ إنشائها إلى ما قبل تاريخ المسجد الأزهر، لا تحوى أى منها عقوداً من الشكل الذى أطلق عليه لفظ «الفارسي»^(١). ومضى (كريسويل) يستعرض أشكال هذه العقود المختلفة عن عقود الأزهر، وذكر أن منها ما يرسم الشكل المنبجج الذى كان معروفاً من قبل فى العصر الساسانى والذى كان يتخذ أحياناً رأساً مدببة^(٢). ومنها العقد المدبب، ذو المركزين، وهو عقد كان معروفاً فى بخارى قبل سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٧م وكذلك كان معروفاً من قبل فى سوريا. ومنها، أخيراً، العقد ذو المراكز الأربعة، وهو الذى ظهر فى المسجد الجامع بأصفهان، فى أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى)، أى بعد ظهور العقد المنفرج فى المسجد الأزهر بحوالى مائة سنة، وبعد ثلاثة قرون من ظهور عقد شببيه فى الرقة. وانتهى (كريسويل) من بحثه إلى أن شكل العقد «الفارسي» الذى تمتد أطرافه مستقيمة وتتكون أكتافه من زاوية منفرجة لم يظهر فى بلاد فارس نفسها إلا فى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، فى مشهد جلال الدين حسين فى (أوزجند).

* هذا هو الرأى الذى أبداه (كريسويل) وأكد فيه أن الحقائق الأثرية والتاريخية «تهدم تماماً»^(٣) ادعاءات (فان برشم) و (سلادان) و (هوتكور) و (مارسيه) ومن اتبعهم من الكتاب، وأنه من «سخافة الرأى» أن يبحث عن أصل العقد الأزهرى فى فارس أو فى الهند^(٤).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الرأى القائل بأن العقود الفاطمية تتميز بأنها عقود «فارسية»، أى عقود منفرجة، ليس صحيحاً بأكمله، لأن هذه العقود لا تشاهد فى الآثار الفاطمية قبل مسجد الجيوشى، أى قبل سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م^(٥)، أما العقود المنفرجة التى تشاهد حالياً فى المسجد الأزهر، فهى إما تنتمى إلى عهد الحافظ لدين الله، أى بعد سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م. وإما أنها جددت وأعيد بناؤها حديثاً على هذا الشكل.

(١) انظر صفحة ٥٢ من الجزء الأول من كتابه: «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٢) العقد المنبجج بيشاوى الشكل وهو المعروف باللفات الإفرنجية باسم (elliptic).

(٣) انظر صفحة ٥٢ من الجزء الأول من «العمارة الإسلامية فى مصر».

(٤) انظر صفحة ٢٤٢ من الكتاب المشار إليه فى الحاشية السابقة.

(٥) لا يعترف (كريسويل) بأن عقود محراب الجيوشى عقود منفرجة، ويعتبر أن أقدم عقد منفرج هو الذى ظهر فى عمارة القاهرة فى محراب إخوة يوسف الذى شيد فيما بين سنتى ٤٩٨هـ و ٥٢٠هـ / ١١٠٤م - ١١٢٥م صفحة ٥٢ من المرجع السابق. ويعتقد بعض الكتاب أن أقدم مثل معروف للعقد المنفرج فى القاهرة هو العقد الموجود بقبة الشيخ يونس الذى يقال - إنها بنيت فى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٩٤م. انظر صفحة ٢٨ من الجزء الأول من الكتاب الذى أصدرته وزارة الأوقاف وعنوانه «مساجد مصر».

العقود المنفرجة، التي تظهر بوضوح في مسجد السيدة رقية، هي في رأيي تطور منطقي وطبيعي للعقود المدببة، كما يتضح من شكل (٢٧) ^(١). وهي نوع من الأنواع العديدة التي ابتكرتها العمارة الإسلامية، والتي سبق أن أشرت إليها ^(٢). وقد أخذت العقود تتطور منذ بداية العمارة الإسلامية من مقوس إلى مدبب إلى منقوخ إلى أحذب ^(٣). والعقد المنفرج هو تطور مباشر للعقد المدبب المطول معاً. وتلاحظ بداية هذا التطور وبعض حلقاته في عقود مساجد الجيوشى والأقمر والسيدة رقية والمصالح طلائع وبصفة خاصة في مسجد الأزهر ذاته، في عقود بلاطة المحراب وعقود مقرنصات قبة البهو وعقود الصحن، اللوحات أرقام (١١ و ١٥ و ١٧ و ٣٥ و ٤٢ و ٥٥). ومتابعة أشكال هذه العقود يؤكد حلقة الانتقال من العقد المدبب المطول، شكل (٢٧ أ)، إلى العقد المنفرج، شكل (٢٨ أ)، ويبين بوضوح الصلة الوثيقة بينهما، حتى إن التفرقة بين مظهريهما قد خفيت على بعض المشتغلين بالآثار ^(٤).

(١) الحقيقة أن العالم الأثرى الإيطالي (ريفيورا) سبق أن اعترف بهذا الابتكار الإسلامى فى كتابه «العمارة الإسلامية» الذى نشر باللغة الإيطالية فى سنة ١٩١٤م وترجم إلى الإنجليزية فى سنة ١٩١٨م.

Rivoira, G.T., *Moslem Architecture*. Oxford, 1925.

وقد أشار (بريجن) إلى هذا الرأى ولم يأخذ به تماماً فى صفحة ٦٩ من كتابه «العمارة المحمدية».

Briggs, M.S., *Muhammadian Architecture in Egypt and Palestine*, Oxford, 1924.

ويعترف (كريسويل)، لأول مرة، بنظرية التطور فى النظم المعمارية ويقرر فى صفحة ٢٢٤ من الجزء الأول من كتاب: «العمارة الإسلامية فى مصر» أن شكل العقد المنفرج يرجع طبيعياً إلى الرغبة فى توفير العمل وذلك بحذف قطع الآجر الواحدة بجانب الأخرى دون الحاجة إلى تسوية أضرافها (لتلائم تقويس العقد)... ويضيف إلى ذلك أنه «ما كان من الممكن متابعة تطور العقود فى آثار القاهرة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر خطوة خطوة وملاحظة التدرج نحو استقامة الجزء العلوى المقوس من العقد (حتى يصبح منفرجاً) فإنه لا جدوى من البحث عن أصول هذا العقد فى مكان آخر». ومع هذا فإن (كريسويل) لا يعترف بنظرية ابتكار هذا العقد فى العمارة الإسلامية بذاتها وكان همه منصباً فحسب إلى «هدم» آراء غيره عن المشتغلين بالآثار الإسلامية، ولهذا فإنه لم يشر فى كتابه على رغم ضخامة حجمه واستيعابه للمراجع والأسانيد إلى رأى العلامة (ريفيورا) الذى أشرت إليه فى مقدمة هذه الحاشية.

(٢) انظر شكل (٥) من «الدخل».

(٣) العقد الأحذب هو العقد المدبب المنقوخ.

(٤) ومن ذلك عقود فى قصر العاشق بالعراق، وهو الذى شيده الخليفة المعتد العباسى فى سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٨م على الضفة الغربية لبحر الدجلة المواجهة لمدينة المتوكنية شمالى سامراء، وقد كشف عن هذه العقود حديثاً ولم تنشر صور لها بعد، ويبدو مظهرها كأنها عقود منفرجة، غير أنه يتضح من القياس الدقيق أنها عقود مدببة من نوات أربعة المراكز. شبيبة بعقود الرقة، فهى بهذا تعبر عن آخر حلقة تتطور العقد المدبب إلى العقد المنفرج، وتؤيد نظرية التطور الطبيعى للعقود العربية الإسلامية.

واستمرت العقود العربية في طريق تطورها، وفي العصر الفاطمي نفسه، حيث انتجت إلى العقد المنبسط^(١)، ثم تمكن البناء من أن يستبدلوا أحيانا بعقود الأبواب والنوافذ عتبات أفقية مستقيمة، وذلك، كما أشرت من قبل، بفضل ابتكار الصنج المعشقة واستخدام هذا العقد المنبسط لتخفيف الضغط على هذه العتبات.



(١) العقد المنبسط هو عقد مقوس غير متكامل، أو هو الجزء الأفقى من العقد المقوس.

المحاريب

امتاز التخطيط في العمارة الفاطمية، كما رأينا في الفصل السابق، بظاهرة تعدد المحاريب في بعض مساجد القاهرة ومشاهدها. ويقتصر الحديث في هذا الفصل على أشكال المحاريب وتطورها في العصر الفاطمي. وكانت هذه المحاريب تحتفظ في مسجدي الأزهر والحاكم بالمظهر التقليدي، وهو الذي يتكون من تجويف في الجدار عبارة عن طاقة صماء، أو حنية، تتوجها نصف قبة ويتصدرها عقد مدبب يرتكز على عمودين وتكسوها زخارف جصية، ويحيط بعقدتها إطار من الكتابة الكوفية^(١). وأغلب الظن أن محرابي مسجدي الأقرم والصالح طلائع كانا لا يختلفان كثيراً عن هذا النظام^(٢).

أما في مسجد الجيوشي فقد تطور شكل المحراب مع احتفاظه بالمظهر التقليدي. ذلك أنه أحيط جداره بإطار كبير مستطيل امتدت عليه الزخارف والكتابات الكوفية، كأنه ستار مزركش مسدل على هذا الجدار فوق المحراب وعلى جانبيه، لوحة رقم (٣٤). واتبع هذا النظام في مشهد عاتكة وحول المحاريب الثلاثة التي تنصدر جدار القبلة في مشهد إخوة يوسف، لوحة رقم ٦٤ أ و ب^(٣).

(١) يعتبر محراب مسجد الأزهر أقدم محراب قائم في العمارة الإسلامية بمصر، وذلك لأن محراب المسجد الطولوني قد جدد في عهد لاجين في أواخر القرن السابع (الثالث عشر الميلادي). انظر المدخله، أما عن أصل المحراب وإدخاله في عمارة المساجد فتراجع في الكتاب نفسه. هذا ويمتاز محراب الأزهر عن محراب الحاكم بأنه يحيط به عقدان مزدوجان.

(٢) تجدر الإشارة هنا إلى المحاريب المسطحة التي أُلصقت ببعض الأعمدة في المسجد الطولوني في العصر الفاطمي، ومنها محراب الأفضل، وزير المستنصر بالله، الذي عمل في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م. وهذه المحاريب عبارة عن لوحات مسطحة مستطيلة صنعت من الجص. وحفر عليها شكل المحراب محاطاً بإطار نقش عليه الآيات القرآنية والزخارف. وقد نقش على محراب المستنصر تاريخه واسم الخليفة ووزيره الأفضل.

(٣) جميع المحاريب الفاطمية مستقلة في تكوينها وزخرفتها، كل منها قائم بذاته، سواء كانت منفردة أم متعددة في البناء الواحد. وذلك فيما عدا المحاريب الثلاثة في مشهد إخوة يوسف، فإنه يجمعها إطار زخرفي واحد يحيط بها.

ثم تطور شكل المحراب مرة أخرى في المحاريب الخمسة بمسجد السيدة رقية، إذ انكمش الإطار المستطيل، ولكن أنصاف القباب تحولت إلى أشكال محارات شمسية، تنبثق ضلوعها من دوائر وسطى. وتحولت عقود طاقة المحراب المتتابة إلى مجموعة من العقود المقرنصة، أو الطاقات المسطحة، شكل (١٦). ونلقى مثل هذه المحاريب المحارية في مشهدى الحصواتى والجعفرى ويحيى الشبيه، لوحة رقم (٦٥).

ولعل هذا الشكل من المحاريب كان معروفاً بمصر منذ بداية العصر الفاطمى، إذ أن محاريب مسجد ديرسانت كاترين تنتهى بأنصاف قباب مضلعة عقودها مقصوفة، تنبثق ضلوعها من وسط القاعدة، وهو شكل يعتبر بداية ملموسة للتطور إلى المحارات الشمسية. وقد أنشئت هذه المحاريب فيما بين سنتى ٤١٩هـ و ٤٣٣هـ / ١٠٢٧م - ١٠٤١م، أى قبل بناء محاريب السيدة رقية بمائة سنة، وهى مدة كانت كفيلاً بتحقيق مثل هذا التطور.

ويبدو لى كذلك أن أنصاف القباب المضلعة التى اتخذت لتتويج المحاريب، والتى كانت مصدرًا لتطور المحارات الشمسية، قد اقتبست نفسها من المقرنصات المقصوفة فى القباب المضلعة، وهذه المقرنصات هى أنصاف قباب كذلك، وكانت منتشرة فى العمارة المغربية، فى القيروان وتونس، قبل منتصف القرن الثالث (التاسع الميلادى)^(١). ومما يؤيد هذا الرأى مراجعة أشكال المحاريب المنحوتة على واجهة مسجد الأقرم ومقارنتها من جهة بمقرنصات القباب المغربية، ومن جهة أخرى بمحاريب المشاهد الفاطمية. وسرى فى الفصل التالى أنه من اليسير متابعة هذا التطور فى سلسلة هذه المحاريب الفاطمية.



(١) انظر الأشكال (٣٤ و ٣٦ و ٣٨ و ٣٩) من: المسجد الجامع بالقيروان، للمؤلف.

القبوات والقباب والمقرنصات

ظلت السقف الخشبية المسطحة تقام فوق العقود على بيوت الصلاة والمجنبات اتباعاً لتقاليد العصور السابقة. ويشاهد ذلك في مساجد الأزهر والحاكم والصالح طلائع وفي أسكوب المحراب من مسجد الأقمر، وأغلب الظن أن سقف الأسكوبين الآخرين من هذا المسجد الأخير كانت عند إنشائه خشبية مسطحة.

واستخدمت في العصر الفاطمي السقف المبنية أو القبوات، وخاصة على الممرات الواقعة في البوابات في مساجد الحاكم والجيوشى والأقمر والصالح طلائع، وفوق القاعتين الجانبيتين في صحن الجيوشى. وهذه السقف المبنية عبارة عن قبوات أسطوانية. والسقف الأسطوانية المبنية ليست بدعة في العمارة الإسلامية، فهي عبارة عن امتداد للعقود. أي إن القبوة الأسطوانية تتركب من مجموعة متجاورة ملتصقة من العقود المقوسة التي ترتكز على الجدران بدلاً من ارتكازها على أعمدة أو دعائم. ولهذا اقتصر استعمالها أول الأمر على الممرات، ولم تتيسر إقامتها على مساحات تزيد فتحته عن فتحة حلق العقد المقوس أو اندب.

وكانت القبوات الأسطوانية معروفة. مثل العقد المقوس، في العمارة القديمة، ومنها انتقلت إلى العمارة الإسلامية. ولكن هذه العمارة أدخلت على القبوات أشكالاً جديدة، مثلما أدخلت على العقود. وقد أشرت إلى ذلك من قبل فيما يخص العقود^(١). واستخدمت القبوات الأسطوانية في العصر الأغلبى في آثار سوسة بالبلاد التونسية، في الرباط وفي مسجد بوفتاته وخاصة في المسجد الجامع، كما استخدمت في قصر رقاده بجوار القيروان. ولعل أقدم مثل معروف قائم من القبوات الأسطوانية المقوسة في عمارة المساجد هي قبوات مسجد سوسة الجامع الذي بنى في سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م فقد استخدمت فيه القبوات بصفة عامة في تسقيف بيت الصلاة ومجنبات الصحن. وهو كذلك، مظهرًا أجمل مثل قديم قائم للقبوة الأسطوانية.

وقد رفعت على بيت الصلاة والقاعات في مسجد الجيوشى سقف أسطوانية متداخلة. أو متعامدة. وكل منها عبارة عن قبوتين مقوستين متعارضتين. أي إنها تعتبر حشواً للمثلثات

(١) انظر برامج القسم الثانى فيما قبل من هذا الفصل وما ينيه من المدخل.

الأربعة التي تنتج عن تعامد عقدين قائمين على أركان مربع أو مستطيل. ولعل سقف الجيوشى كانت مقتبسة من سقف بوابات القاهرة وأسوارها التي أقامها بدر الجمالى، وهو انذى أقام مسجد الجيوشى كذلك.

وكانت القبوات المتداخلة معروفة فى سوريا فيما قبل الإسلام، وكان (بتلى) قد أشار إلى اشتقاق قبوات بوابات القاهرة من هذه القبوات السورية^(١). ولكنه ليس من المستبعد أن تكون القبوات الفاطمية مشتقة، مثل عناصر معمارية وزخرفية فاطمية أخرى، من العمارة المغربية. إذ إنه توجد قبوات متداخلة من العصر الأغلبى فى مساجد سوسة وفى أسوار مدينتها، وهى من منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، كما أنها كانت متبعة فى مسجد المهديّة الفاطمى فى تونس، وهو الذى أقيم فى سنة ٣٠٣هـ / ٩١٦م، ثم استخدمت بكثرة بعد ذلك فى بلاد المغرب فى العصر الفاطمى والعصور التالية.

وكانت للقباب الفاطمية أهمية كبرى. وقد أشرت من قبل إلى قبة المحراب فى كل من مساجد الأزهر والحاكم والجيوشى والسيدة رقية وإلى قبة البهو فى مسجد الأزهر، وإلى القباب التى كانت تمتطى أركان أسكوبى المحراب فى كل من مسجدي الأزهر والحاكم^(٢). وتمتاز القباب المتخلفة من هذه الآثار بأنها أقيمت على مقرنصات معقودة.

والمقرنص المعقود هو نصف قبة يتصدرها عقد عموس. وكان هذا المقرنص معروفًا فى العمارة القديمة، وكذلك كانت القباب. ولكن هذه وتلك كانت تتخذ مظاهر وعناصر تختلف عن مظاهرها وعناصرها فى العمارة الإسلامية. وقد أوضحت فى بحث آخر تطور أشكال القباب

(١) نشر (بتلى) فى صفحة ٣٣ من كتابه عن «العمارة فى سوريا».

Butler, *Architecture in Syria*. Section B. Northern Syria.

ونقل (كريويل) هنا انراى فى صفحة ٢١٢ من الجزء الأول من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر»، وعنه أشرت إليه هنا

(٢) أقيمت على الأسكوبين الثانى والثالث من بيت الصلاة فى مسجد الأقرم وعنى أروقة المنجنيات فى هذا المسجد مجموعة من القبوات والقباب وإنى أعتقد أنها جميعا مجددة ولا يعتد بها فى التعرف بالقباب الفاطمية. وقد اندثرت فى مسجد الأزهر قباب أسكوبى المحراب الثلاثة، وكذلك لم يتبق غير أجزاء من قبلى أسكوبى المحراب فى مسجد الحاكم

والمقرنصات من فيروزآباد وسارفيستان في بلاد الفرس، قبل الإسلام، إلى بلاد المغرب في العمارة الإسلامية^(١).

استفاد البناة العرب من تجارب الأمم السابقة في بناء القباب والمقرنصات، ولكنهم حوروا عناصرها بما يتفق مع أساليبهم الإنشائية ومزاجهم الفني، بحيث تضاءلت ذكرى القباب الرومانية والفارسية أمام القباب الإسلامية، وأصبحت هذه عنصراً من العناصر المميزة للعمارة الإسلامية. وأقدم مثل عربي معروف للمقرنصات المعقودة يظهر في قبة المحراب بمسجد القيروان التي بنيت سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م. والمقرنص فيها عبارة عن عقد مقوس، أي نصف دائرة، يتركز على عمودين، وتقوم من ورائه نصف قبة محارية^(٢). وقد انتشر استخدام المقرنصات المعقودة بعد ذلك في البلاد التونسية، أقيمت في سوسة في سنتي ٣٠٦هـ / ٨٢١م و ٢٣٦هـ / ٨٥٠م وفي تونس في سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م وسنة ٣٨١هـ / ٩٩١م، وأقيمت في مسجد قرطبة سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م. وهي في كل هذه الآثار تعبير عن فكرة واحدة مبتكرة، أساسها تجزئة الكتلة إلى خطوط هندسية. فقد أصبحت المقرنص، الذي هو أصلاً كتلة كروية من نصف قبة، عبارة عن خط هندسي، هو عقد نصف دائري، وأصبح ما وراءه حشواً. وقد تطور المقرنص في الآثار المغربية حتى اتخذ مظهراً زخرفياً بحتاً. مثلما يشاهد في مقرنصات قبة تلمسان^(٣).

وأقدم القباب الفاطمية في القاهرة، وهي قبة مسجد الحاكم، لاحقة تاريخياً لهذه القباب المغربية الأندلسية جميعاً^(٤). ولهذا فإنني أعتقد أنها قد انتقلت من هذه القباب إلى القاهرة، وأن مقرنصات

(١) انظر صفحات ٩٥ إلى ١١٩ في كتاب المؤلف: التأثيرات الإسلامية.

L'Art Roman du Puy et les Influences Islamiques.

وكذلك انظر صفحات ٨٧ إلى ١٠٤ من كتاب «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف، و صفحات ٨٣ إلى ٩٢ من مقاله «مسجد الزيتونة الجامع في تونس». وقد أوضحت في هذه البحوث طريقة استخدام المقرنصات المعقودة لتحليل المربع إلى مثلثين إلى دائرة تمتطيها القبة، وشرحت وسائل انتقالها إلى بلاد المغرب، وحاولت أن أبين الفكرة الإنشائية الجديدة في تطبيق هذه العمارة الإسلامية. ولهذا أكتفى في هذا القسم بالإشارة فحسب إلى نتائج هذه البحوث.

(٢) انظر شكل (٣٦)، صفحة ٩٢ من كتاب «المسجد الجامع بالقيروان».

(٣) مقرنصات مشهد الشيخ يونس تبدو زخرفية كذلك، إذ تعلوها نوافذ في رقبة القبة. ولهذا السبب فإنني أرجح أن يكون تاريخها لاحقاً للتاريخ المنسوبة إليه. وأسستعرض في الفصل التالي مرحلة اتخاذ المقرنصات عنصراً من عناصر الزخرفة.

(٤) يفترض (هوتكرو) أن مقرنصات (السيب بنات) أقدم مقرنصات ظهرت في العمارة الإسلامية بمصر. وأنها أقدم من مقرنصات (الحاكم). انظر صفحة ٢٢٦ من كتابه «مسجد القاهرة». وهذا الادعاء غير مقبول لأن تاريخ (السيب بنات) لاحق حتماً لتاريخ (الحاكم)، انظر صفحة ٣٢ فيما سبق.

مسجدى الحاكم والجيوشى تطور منطقي للمقرنصات التونسية. وإن كان مقرنص قبة بوابة الفتوح يختلف مظهرًا وتكوينًا، فإن ذلك يرجع إلى بنائه من الحجارة، ولكنه على كل حال لا يدل على اشتقاق سورى أو أرمنى. وقد اعترف (كريسويل) بأنه لا يوجد أى مثل شبيهه بالمقرنصات القاهرية فى آثار سوريا أو العراق السابقة أو المعاصرة لها^(١) وأن المقرنصات المعروفة فى بلاد الفرس «تتخذ أشكالًا وعناصر مختلفة تمامًا عنها فى القاهرة»، وأضاف أنه «هكذا تصنع صفة أخرى تلك النظرية القائلة بتأثير العمارة الفارسية على العمارة الفاطمية»^(٢). وأخيرًا قرر (كريسويل) «أن تطور المقرنصات الذى حدث فى مصر كان بأسره ابتكارًا محليًا»^(٣).

غير أن (كريسويل) لم يشر إلى احتمال اقتباس المقرنصات المعقودة القاهرية من المقرنصات المغربية. وليس أدل على اتصال هذه بتلك من قبة السيدة رقية. فهذه القبة مزلعة، تمامًا مثل قبتي المحراب فى مسجدى القيروان والزيتونة، لوحة رقم (٦٢). وإذا كانت قبة السيدة رقية تقارن بقبة الشيخ يونس، وتاريخها ٥٨٧هـ / ١٠٩٤م وبقبتي عاتكة والجعفرى، لوحة رقم (٦١). وتاريخهما حواى ٥١٥هـ / ١١٢١م وبقبة يحيى الشيبه، لوحة رقم (٥٩ ب) وتاريخها حواى ٥٤٥هـ / ١١٥٠م. فليس فى هذا ما يمنع من أن هذه القباب جميعًا قد تأثرت مثل كثير من عناصر العمارة الفاطمية بالقاهرة، بالقباب المغربية.

وأنا تلقى فى هذه القباب الخمس حلقة جديدة من تطور المقرنصات فى اتجاه خاص يميز العمارة الإسلامية فى العصر الفاطمى، وامتد تطوره إلى العصور التالية.

كان المقرنص فى مساجد الحاكم والجيوشى والأزهر، وكذلك فى مشاهد السبع بنات وإخوة يوسف والحصواتى، عبارة عن نصف قبة كروية يتصدرها عقد كأنه إطار بارز لها^(٤). أما فى السيدة رقية وفى انتساب الأربع الشاذلية لها. فقد أصبح المقرنص يتكون من مجموعة من العطايات والمعقود^(٥). وقد نظمت هذه المجموعة فى نظام زخرفى قوامه التكرار والتدرج. ذلك أن المقرنص الذى

(١) وذلك فى صفحة ٢٥٣ من الجزء الأول من «العنارة الإسلامية فى مصر»

(٢) انظر النسخة نفسها من المرجع السابق.

(٣) وهذا نص ما جاء فى الصفحة المشار إليها فى المرجع السابق عن هذا التطور

"we can say without hesitation that the evolution observed in Egypt was entirely a local creation"

وأنى أسجل سرور وتقدير هذا الاعتراف.

(٤) وكان العقد فى هذه المقرنصات إما مدببًا أو منفرجًا، كما كان يتكون من عقدتين متتابعين فى الجيوشى وإخوة يوسف والسبع بنات. انظر صفحات ٣٢ و ٣٤ و ٣٥ فيما سبق عن تاريخ هذه القباب.

(٥) وكذلك يتكون المقرنص بهذه الصورة فى قبة أحد المشاهد الفاطمية فى أسوان. وفى قبة موفى الدين الواجبة لخدمته ببيرس انجاشنكير التى يرجح بناؤها فى القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) انظر لوحة رقم (١١١) فى الجزء الأول من كتاب (كريسويل) «العنارة الإسلامية فى مصر».

يمتد ركن المربع المحيط من كل جانب بطاقة صماء تنتهي ببروز على هيئة رأس العقد فى المقرنص الوسيط وأقيم على رأس هاتين الطاقتين مقرنص ثان شبيه بالمقرنص الأول، يعلوه ويتقدم عليه. واتخذت هذه المجموعة بهذه الصورة شكلاً يرسم خطوطاً هندسية مستقيمة، وزوايا منفرجة وحادة، ومثلثات. وكذلك تكونت من إطارها صورة ترسم شكلاً هرمياً مدرجاً.

وأخذت المقرنصات تتطور بعد ذلك فى هذا الاتجاه تطوراً لم تقف حدوده فى العصور التالية. وكان لهذا الاختراع البسيط فى مبدئه وفكرته، الفريد فى نوعه، شأن كبير فى تاريخ العمارة، وتولدت عنه أشكال من المقرنصات لا حصر لها، لا فى القاهرة وحدها فحسب، بل فى العالم العربى والإسلامى جميعاً، كما سنرى، إن شاء الله، فى الأجزاء التالية من هذا الكتاب.

وحدث أول مظهر لهذا التطور فى العصر الفاطمى نفسه، فى مقرنصات قبة أبى الغضنفر، سنة ٥٢٢هـ / ١١٥٧م^(١). إذ إن المقرنص ازداد تجزئة. وأصبح يتكون من ثلاثة طوابق، فيما مقرنص وسيط تحيط به خمس طاقات، لوحة رقم (٦٠) بعد أن كان يتكون فى السيدة رقية وزميلاتها من مقرنص تحيط به طاقتان ويعلوه مقرنص ثان.

وهكذا أخذت العناصر المعمارية تتحول تدريجياً أو على الأصح تتجزأ إلى عناصر زخرفية.

وكذلك القباب كانت كتلا كروية فى الحاكم والأزهر والجيوشى، فأصبحت فى السيدة رقية وشبهاتها تتجزأ إلى ضلوع، تتكون من خطوط مقوسة تنبع وتتفرع من قمة القبة كأنها هيكل عظمى لجسد القبة يبدو مكسواً للناظرين من الداخل ومن الخارج على السواء، لوحة رقم (٥٩). ولا يستطيع الباحث أمام هذه الظاهرة، أن ينكر صلة هذه القباب الفاطمية بالقباب المغربية، أو يتجاهل وحدة التعبير والتصميم الهندسى فى العمارة الإسلامية هنا وهناك^(٢). وتزداد هذه انصلة قوة من مقارنة قبة القيروان ببعض قباب القاهرة، مثل السيدة رقية والسبع بنات، والجيوشى إلى حد ما، إذ يتضح من مظهرها الخارجى تحول المربع إلى مثلث الأضلاع من جهة، وتدرج الطوابق من جهة أخرى.



(١) انظر صفحة ٣٧ فيما سبق عن ترجيحي لينا، هذه القبة فى ذلك التاريخ.

(٢) انظر صفحة ١٠٢ وما يليها وشكل (٤٤) من كتاب «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف.

المآذن والمعاطف

وأخيراً تمتاز عمارة القاهرة في العصر الفاطمي بمآذنها، وقد تخلفت منها أربع مآذن، اثنتان في مسجد الحاكم، ومئذنة في مسجد الجيوشي وأخرى في أبي الغضنفر، أما ما عداً ذلك فقد تهدم واندرثر^(١).

وقد وصفت ببيان مآذن الحاكم والجيوشي في الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب، وأوضحت أن مئذنتي الحاكم هما أقدم مئذنتين قائمتين في العمارة الإسلامية بمصر^(٢)، كما أوضحت أن تصميم هاتين المئذنتين لم يكن يتضمن بناء المعظفين ولكنهما أضيفا إليهما بعد تمام بنائهما لتدعيمهما خوفاً عليهما من التزعزع والسقوط^(٣).

والمآذن معروفة في العمارة الإسلامية منذ عصورها الأولى، وأقدم المآذن الخالدة في تلك العمارة هي مئذنة المسجد الجامع بالقيروان، وتاريخها سنة ١٠٥هـ / ٧٢٤م^(٤). وتمتاز هذه المئذنة بقاعدتها المربعة المرتفعة بانحدار وانسياب داخلي، كما تمتاز بتراجع طوابقها العليا وتدرجها عن سمت هذه القاعدة. وإذا كنت قد رجحت منذ سنوات أن هذه المئذنة اقتبست من الأبراج السورية. فإني أكدت

(١) كتب الدكتور سالم (السيد محمود عبد العزيز) رسالة عنوانها «المآذن المصرية - نظرة عامة عن أصولها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني» نشرت بالقاهرة في سنة ١٩٥٩م، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي)، وفي هذه الرسالة عرض مركز عن مآذن القاهرة وأسوان في العصر الفاطمي، الصفحات ١٧ إلى ٢٣.

(٢) تتلو هاتين المئذنتين تاريخاً مئذنة المسجد المقام في دير سانت كاترين في سيناء، ويرجع تاريخها إلى ما بين سنتي ٤١٩هـ و ٤٣٣هـ / ١٠٢٧م - ١٠٤١م). وهي مئذنة مبنية من قطع الحجارة غير المنتظمة، وكسيت مسطحاتها بظيقة من الجص، وهي مربعة القاعدة، وترتقى على هذا الشكل حتى نياتها الذي توجه قبة نصف كروية. ويبلغ طول ضلع مربع المئذنة ٣.٧٥ أمتار وارتفاعها إلى قاعدة القبة ١٥ متراً تقريباً. ويستمد مظهر هذه المئذنة جماله من استقامة خطوطها وبساطة بدنتها.

(٣) كان الأستاذ (هوتكون) قد أبدى رأياً مماثلاً وفسره باحتمال حدوث زلزال في ذلك التاريخ. ولكنه لم يدرس بناء المعظفين من الداخل ليتأكد من وظيفتهما المعمارية بالنسبة لتدعيم المئذنتين. وذلك باستناد بدنتيهما على المعظفين في المواضع التي تتطلب الارتكاز. انظر كتابه «مساجد القاهرة»، الجزء الأول صفحة ٢٢٣. والرأى انذى أسداه (قيبيت) عن تاريخ المعظفين والذي يشير إليه هوتكون في تلك الصفحة. يقع في هذا الكتاب.

(٤) انظر صفحات ١١٠ إلى ١١٢ من كتاب المسجد الجامع بالقيروان. للمؤلف.

كذلك وأن ذكرى تلك الأبراج «تتضال أمام شهرة مئذنة القيروان وشخصيتها»^(١)، «إذ بينما تظهر تلك الأبراج في هيئة الجمود، وتخلو نسبها من مظهر التوازن؛ فإننا نرى مئذنة القيروان ترتسم في الفضاء كتلة تجمع بين الانسجام والاتزان»^(٢)، لوحة رقم (٦٣ أ).

وقد اتخذت مئذنة القيروان أنموذجاً للمآذن في بلاد المغرب والأندلس، وأكثر هذه المآذن صلة وقربة لمئذنة القيروان هي مئذنة مسجد سفاقص التي تبدو أقل عظمة، ولكنها تتخذ مظهرًا أكثر انسياباً ورشاقة. وقد أقيمت هذه المئذنة في سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م، لوحة رقم (٦٣ ب)؛ أي قبيل الشروع في بناء مئذنتي الحاكم. ولاشك في أن هاتين المئذنتين، ومئذنة مسجد الجيوشى تنتمى كذلك إلى سلالة مئذنة القيروان. إذ إن وجه الشبه كبير. مظهرًا وبنياً، بين مآذن القاهرة الفاطمية ومئذنتي القيروان وسفاقص، وذلك لأن قواعدها جميعاً مربعة، وجدرانها تنحدر، وطوبقها العليا تتدرج وتتراوح. ويقوى وجه الشبه والقربة إذا قورن معطفاً مئذنتي الحاكم بالطابق الأول من مئذنة القيروان. وإن كان مظهر الانحدار والانسحاب يزداد وضوحاً في المعطفين عنه في مئذنة القيروان فذلك يرجع إلى الأسباب الفنية لوظيفة التدعيم التي يؤديانها، مما دفع البنائين إلى زيادة طول ضلع المربع عند القاعدة^(٣)، ولكن هذا الانسحاب يثبت قطعاً من فكرة واحدة.

وتبعاً لنظرية التطور فقد اختلف بناء المئذنتين ومظهرهما عن بناء مئذنة القيروان. وإذا كنا لا نعرف بالتحقيق مدى ارتفاع المئذنتين عند بنائهما وقبل تشييد الطوابق العليا في عهد بيبرس الجاشنكير، فإن أغلب الظن أن هذه الطوابق العليا أقيمت عوضاً عن مثيلات لها كانت قائمة وهدمتها الزلازل، وأن ارتفاع المئذنتين كان قريباً من الارتفاع الكلى الحالى لكل منهما، أى إن قمة المئذنة الشمالية كانت ترقى إلى ارتفاع ٤٦ متراً تقريباً، وكانت قمة المئذنة الغربية ترقى إلى ارتفاع ٤١ متراً تقريباً، وهو ارتفاع يزيد كثيراً عن ارتفاع قمة مئذنة القيروان الذى لا يتعدى ٣٢ متراً، بينما يزداد طول ضلع قاعدتها ثلاثة أمتار أو أكثر عن طول ضلع كل من قاعدتي المئذنتين في مسجد الحاكم. وحدث مثل هذا الانعكاس النسبى فيما يتصل بالطابق الأول المربع، إذ بينما يبلغ ارتفاعه ٢١ متراً فى القيروان، فهو لا يكاد يبلغ ١٤ متراً فى المئذنة الغربية ولا يتعدى أربعة أمتار فى المئذنة الشمالية^(٤).

(١) انظر المرجع السابق، صفحة ١١٢.

(٢) انظر شرحه، صفحة ١١١.

(٣) طول ضلع قاعدة القيروان حوالى ١١ متراً ويبلغ ارتفاع الطابق الأول فيها ٢٠ متراً فوق الأرضية، ويقبل ضوئاً ضلع المربع عند هذا المستوى نصف متر عنه عند القاعدة وأما المعطفان فيبلغ طول ضلع القاعدة ١٦ متراً بالنسبة للمعطف الشمالى و ١٧ متراً بالنسبة للمعطف الغربى، ويقبل الضوئ عند النهاية العليا ٤ أمتار بالنسبة للمعطف الأول و ٣ أمتار بالنسبة للثانى. ويبلغ ارتفاع المعطف الشمالى فوق أرضية القاعدة ٢٦ متراً، والمعطف الغربى ٢٤ متراً

(٤) هذه المقاسات تقريبية، وتراجع المقاسات الحقيقية فى هذا الكتاب.

ويلاحظ وجه آخر للاختلاف في مؤذنتي الحاكم، ذلك أنهما بنيتا في أركان مؤخر المسجد وخارج سمته جداره، في حين بنيت مؤذنة القيروان، في منتصف جدار المؤخر وداخل جداره^(١). ولكن مسجد الحاكم يشبه في هذه الظاهرة مسجد المهديّة في تونس، كما شابهه، كما رأينا في بوابته البارزة.

وهذه أوجه خلاف شكلية بين مظاهر المآذن الثلاث القيروانية والحاكمية، ولكن المظاهر الرئيسية التي تميز مؤذنتي الحاكم وتعبّر عن حقيقة التطور تكمن في بناء الطوابق العليا التي تعلو الطابق الأول المربع، وهو العنصر المشترك في المآذن الثلاث. ذلك أن هذه الطوابق أصبحت أسطوانية في مؤذنة الحاكم الشمالية، ومثمثة الأضلاع في المؤذنة الغربية. وهكذا تطور مظهر المؤذنة، وبينما ظل يحتفظ في بلاد المغرب والأندلس بالشكل المربع بالنسبة لقاعدة المؤذنة وبدنتها وطوابقها على السواء، أخذ في عمارة القاهرة يحتفظ في بدنة المؤذنة بالشكل المربع للقاعدة فحسب، ويجمع إليه في الطوابق العليا الشكل المضلع أو الشكل الأسطواني، منقردين أو متعاقبين. ومن هنا تبرز أهمية مؤذنتي الحاكم، اللتين غيرتا مؤذنة القيروان في مظهرها، ولكنهما احتفظتا في بنائهما بفكرة الانسياب من جهة وتدرج الطوابق العليا من جهة أخرى، وهي الفكرة التي تعتبر مؤذنة القيروان أقدم تعبير قائم لها في تاريخ العمارة.

ويلاحظ هذا التطور في مؤذنة الجيوشي، إذ بينما احتفظت هذه المؤذنة بطابع القواعد المربعة في طابقيها الأول والثاني، وبمظهر التدرج في طوابقها الثلاثة، أخذت عن مؤذنة الحاكم الشكل الجديد المضلع، وتحول طابقيها الثالث إلى مثنى الأضلاع. واتبع مثل هذا التحول في مؤذنة أبي الغضنفر التي أقيمت قبيل نهاية العصر الفاطمي، في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، ثم اتخذت قاعدة اتبعت، كما سنرى في الجزء التالي، في مآذن العصر الأيوبي.

ومؤذنة الجيوشي أهمية أخرى كان لها شأن في العصور التالية كذلك، وهي أنه ظهر بها، ولأول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية. عنصر جديد، هو إفريز مزدوج من المقرنصات يدور حول نهاية الطابق الأول، على هيئة شرفة بارزة من فوقه، أو إطار يفصل بينه وبين الطابق الثاني. غير أن هذا العنصر الجديد كان زخرفياً أكثر منه معمارياً، إذ إن المقرنصات فيه منكمشة كالحلالي، وهي لا تؤدي على كل حال الوظيفة الإنشائية التي وضعت لها، ولهذا نرجئ الحديث عنها إلى الفصل التالي.

(١) بنيت مؤذنتا الحاكم كذلك خلافاً لما اتبع في المسجد النطونوي. التي أقيمت مؤذنته في منتصف الزيادة المتصّفة بجدار مؤخر المسجد. ونعله مما يؤكد صفة عمارة الحاكم بالعمارة اتونسية أن مآذن مساجد سوسة والزيتونة وسفاقص كانت كل منهما مقامة على ركن من أركان مؤخر المسجد، ولكنها كانت داخلة فيه، غير خارجة عن سمته جداره، فيما عدا مؤذنة سوسة.